المحاضرة الرابعة

المدرسة العراقية القديمة

دل مسح النصوص التي يمكن ارجاعها الى (الالف الثالث ق.م) إلى وجود مدارس رسمية في وادي الرافدين في فترة تدعو الى الاندهاش وهي فتره قديمة تسبق مباشرة ظهور الإزمنه البابلية القديمة نحو (٢٠٠٠ ق. م) وفضلا عن ذلك فإنه في عصر حمورابي ظهرت مؤسسات تسعى الى نسخ الكتابات وتعمل على تعليم الناشئة بحيث انها كانت مزدهرة في طول البلاد وعرضها في وادي الرافدين وفي كل المراكز المدنية المهمة.

وردت لفظة المدرسة في اللغة السومرية بصيغة (اي – دوبا) وقد ترجمها الاكديون (بيت توبي اي (بيت الألواح) أما الملوك فقد كانوا يتبجحون بما كانوا يتعلمونه من القراءة والكتابة ويعتبر ذلك شيئا كبيرا يقول احدهم " منذ كنت صغيرا في المدرسة تعلمت فن النسخ من خلال اطلاعي على الألواح السومرية والاكدية لم يكن احد من الصبيان يستطيع ان يكتب على لوحة كما كنت افعل. ففي بيت الحكمة حيث يتعلم الناس كنت استطيع ان اطرح واجمع كما كنت ذكيا في العدوى المحاسبة انا كاتب متفتح ألست كذلك؟

لقد كان من حسن الحظ ان تدل المواضع الأثرية المكتشفة حديثا عن بنايات المدارس اذ وجدت فيها كلمات تشير بوضوح بالجهد المضني الذي يقوم به التلميذ الصغير بالكتابة المسمارية المعقدة.

وكما ذكرنا سابقا فإن أول مدرسة في العالم كانت قد أسست في هذه البلاد الطيبة بلاد ما بين النهرين لقد غدا التعليم في بلاد سومر بعد ان ازدادت المدارس زياده ملحوظه نظاميا وقد اكتشفت في اوائل القرن العشرين عدة من الألواح المدرسية التي كانت مادتها تتحدث عن الادارة والاقتصاد وتظهر الألواح ايضا ان الذين مارسوا فن الكتابة كانوا بالآلاف وكان هدف المدرسة السومرية ابتداء الاقتصار على تعلم اللغة السومرية ثم تدريب موظفين في شؤون الاقتصاد والادارة ليعلموا في دواوين الدولة وفي المعابد أيضا كما ان ظهور النساخ المحترفين كان استجابة لحاجات المجتمع للاحتفاظ بالسجلات وترتيب نظم معقدة للسيطرة الإدارية ولكتاب القاب تتعلق بالجانب الذي يمارسه كل منهم وتكتب بلغتين السومرية والاكدية مثل كتاب العقود او النقاش الاختام او المساح او المسجل العسكري او المستشار او امين السر او الكاتب العمومي المختص بجماعة العمال.

نظام التعليم والمناهج الدراسية

من الحقائق البارزة التي يجدر ذكرها عن نظام التعليم في المدرسة السومرية هي أن المدرسة لم تكن على شيء مما يمكن تسميته بالتعليم الحر التقدمي فقط كانت (العصا) غالبا هي التي يلجأ إليها المعلم للمحافظة على النظام ومع ذلك فقد كان المدرسون يشجعون طلابهم عن طريق المديح والثناء.

لقد كان نظام التعليم ليس سهلاً فالطالب لكي يحقق النجاح يجب أن يواظب على دروسه في المدرسة يوميا من الشروق حتى المغيب، وكان النظام يجيز للطلاب التمتع بعطلة معينة في وقت من أوقات السنة الدراسية. ان سنين الدراسة كانت طويلة، فالطالب يلازم المدرسة منذ الصباح الى ان يصبح شاباً.

وتجدر الاشارة الى ان المدرسة العراقية القديمة عرفت مناهجها الدراسات العليا ولما يسمى آنذاك بالتعليم النظامي وكان مكانة المدرسة التي كانت ملحقة عادة بالمعبد الذي يكون في المدن الرئيسية وقد اشتهرت كل مدينة عراقية قديمة بمنهج معين، فقد اشتهرت (اور) بتدريس الطب وعلم الفلك والتنجيم والأدب، والفن واشتهرت الوركاء بالطب والعقاقير والآداب، واشتهرت (ايسن ولارسا) بعلوم الرياضيات والفلك، واشتهرت (مملكة اشنودا) بالتجارة والرياضيات العالية. لقد سبق العراقيون القدامى اقليدس بالرياضيات والهندسة المجسمة بحوالي (١٥٠٠ عام).

الإدارة المدرسية

كان مدير المدرسة يدعى (أب المدرسة) وكان يلقب (بالأستاذ) احتراما له واذا ما ذكر فانه يذكر بالاحترام اللائق، وقد جاء في إحدى المدائح النموذجية (الاستاذ هو الاله الذي يبني الإنسانية).

اما المعلمون فكانوا يتمتعون بمركز اجتماعي مرموق فهم أعلى من الكهنة والضباط والولاة ويدعى المعلم (اليا) ويعني العلامة او الاستاذ ويعتقد السومريون والبابليون ان (الاليا) يعرف كل شيء طالما يعرف الكتابة بالخط المسماري لان الخط المسماري كان مقدسا لأن البشر اخذوه عن الآلهة ولكنه كان لنوع واحد من البشر هم الأساتذة.

اما التلاميذ فقد كانوا يسمون انفسهم (ابناء المدارس) وكانوا أيضا يتمتعون بمكانة محترمة في المجتمع ان الاستاذ كان يدعو تلاميذه (ابنائي) ويسميهم ايضا ابناء بيت الرقيم.

اما الشخصية التي تأتي بعد الاستاذ فهي ما تسمى بـ(اداديا) أي "أبو الرقم" وعمله التدريس المستمر وهناك شخصية أخرى تشبه وظيفة المراقب يقوم بمساعدة الاستاذ ويجب عليه اجتياز مرحلة أعلى من الدراسة بالنسبة للطلاب المبتدئين وواجبه احيانا الإنابة عن الاستاذ في تعليم التلاميذ القراءة والكتابة وحفظ النظام في المدرسة كما أنه مسؤول عن نظافة المدرسة ودوام الطلاب، وهو ينفذ كل تعليمات الأستاذ، ويوجد ضمن الهيئة

التدريسية وظيفة كاتب وواجبه كتابه التمارين للتلاميذ بالإضافة إلى أن لديه واجبا أساسيا آخر هو الاهتمام بسلوك الطلاب وسمعتهم ومراقبتهم داخل المدرسة.

المكتبات

كانت المكتبات منتشرة في كل المدن الإقليمية تقريبا وعلى مسافة متاخمة لكل مكتبه كانت توجد مدرسة للنسخ ملحقة بها اما اكبر مجموعة من الألواح وكانت تتمثل في المكتبة الخاصة (باشور بانيبال) في نينوى، فقد كان الملك مولعا بالآثار شأنه شأن اي عالم اثاري، فنظم حملة للبحث عن نطاق الإمبراطورية عن الآثار والنقوش القديمة وجمع كل المصادر الثقافية والتاريخية لاسيما في بلاد سومر واكد.

ولقد عثر على (٢٥/٠٠٠) لوحة سليمة او محطمة في مجموعة الامبراطور اشور بانيبال ومن الالواح التي تعنى بالقضايا الاقتصادية والادارية التي وجدت يتضح ان عدد الكتبة الذين يمارسون حزمة النسخ تجاوزت الالوف في العهود السومرية.

العلاقة بين البيت والمدرسة

ان الوثيقة المدرسية التي تتحدث عن الحياة اليومية لطالب مدرسة هي واحدة من أعظم الوثائق الإنسانية التي اكتشفت في الشرق حتى الان اذ انها تحتوي على مقالة كتبها معلم مدرسة عراقية قديمة جاءت بأسلوب بسيط وكلمات واضحة تؤشر ان التلميذ العراقي حينئذ لا يختلف عن أخيه التلميذ السومري. أن الوثيقة تتحدث عن تلميذ يستيقظ صباحا فيحث امه للإسراع بوجبة غذائه التي يصحبها معه الى المدرسة. انه يتجنب قدر الامكان سوء السلوك في المدرسة وان المقالة تبدأ بسؤال مباشر موجه الى التلميذ: إلى أي مكان ذهبت منذ كنت طفلا صغيرا؟